مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية
ISSN 2170-0370/E-ISSN 8127-2710
المجلد 14،العدد01 – 2023 / ص ص:65- 79

التاريخ الفكري عند فوكو من الرؤية الميتافيزيقية إلى المساءلة الأركيو ـ جنيالوجية

Intellectual history from metaphysical vision to Archéo-genetics question

خيرة بورنان *
جامعة محمد بوضياف ـ المسيلة kheira.bourenane@univ-msila.dz

تاريخ الاستلام : 2022/06/14 ؛ تاريخ القبول : 2022/12/26 ؛ تاريخ النشر : 2023/01/31

الملخص

إذا كان التاريخ السياسي والعسكري قد استغرق لردح من الزمن اهتمام المؤرخين، فإن ذلك كان على حساب مجالات معرفية ظلت بعيدة عن التناول التاريخي ومن ذلك تاريخ الأفكار. ولئن جعل هيجل من الفكر المحرك الأساس للتاريخ، مسيجا إيَّاه بسياج ميتافيزيقي وجعل من التاريخ الكلِّي أو الشامل أداة في خدمة السلطة والدولة، فإن مؤرخ الأنساق الفكرية، ميشيل فوكو دفع هذا المجال المعرفي باتجاه مغاير تماما، إن من جهة الموضوع أو من جهة المنهج أو الغاية. ويهدف هذا المقال إلى تقصي وجهة نظر فوكو أو مقاربته التي قدمها فيما يخص تاريخ الفكر الغربي من خلال اعتماده على المنهج الأركيولوجي والمنهج الجينيالوجي، متجاوزا الرؤية الميتافيزيقية للتاريخ الفكري.

الكلمات المفتاحية: تاريخ الأفكار؛ الجينيالوجيا، فوكو الأركيولوجيا؛ التاريخ الميتافيزيقي؛ الانفصال

Abstract

If political and military history has taken the attention of historians for a while, this was at the expense of areas of knowledge that remained unknown and far from historical consideration. It is the history of ideas. And while Hegel made thought the main engine of history, fenced it with a metaphysical fence and made total or comprehensive history a tool in the service of power and the state, then the historian of intellectual systems, Michel Foucault, pushed this field of knowledge in a completely different direction, from the point of view of the subject or from the side of the method or the goal . This article aims to investigate Foucault's point of view or his approach to the history of Western thought through its reliance on the archaeological and genealogical method, bypassing the metaphysical view of intellectual history.

Keywords : history of ideas; Genealogy, Foucault Archeology; Metaphysical History

* خيرة بورنان

مقدمة:

إنَّ البعد التاريخي أحد الأبعاد الرئيسة التي يتسم بها الوجود البشري، فالإنسان ـ بخلاف بقية الكائنات ـ لا يعيش منغلقا في لحظته الحاضرة فقط، بل يستطيع العودة إلى الماضي تأويلا لما حدث أو تبريرا أو نقدا...أو ليستعين به لرسم أهدافه المستقبلية. لذلك اهتم الإنسان منذ القدم بحفظ ماضيه بشتى الوسائل والطرق. ولئن حاز التاريخ السياسي والعسكري والدبلوماسي لردح من الزمن على اهتمام المؤرخين، فإن ذلك كان على حساب مجالات معرفية ظلت بعيدة عن التناول التاريخي، لكن الملاحظ أن أهم الخصائص المميزة لحضارتنا المعاصرة هي وعيها التاريخي الهادف إلى فهم الماضي على كل الصُّعد، ومن ذلك صعيد الأفكار. لقد بات من المؤكد اليوم في مجال الدِّراسات التاريخية أن التاريخ لا تتألف من الأحداث الكبرى فقط، بل هي يتألف أيضا من أفكار عظيمة أسهمت في التمهيد لتلك الأحداث أو صاحبتها أو تمخضت، وتبلورت عنها فأثرت تأثيرا متفاوتا في معاصريها وشكلت منعطفات تاريخية سواء في زمانها أو في فترات لاحقة. فالفكرة لدى المؤرخين والفلاسفة هي المحرك الأساسي للتاريخ.

وإذا كان مؤرخ الأفكار الأمريكي آرثر لوفجوي أحد هؤلاء وأوَّل من نحت مصطلح تاريخ الأفكار، فإن الفيلسوف الألماني هيجل سبقه لما جعل من الفكر المحرك الأساس للتاريخ مسيجا إيَّاه بسياج ميتافيزيقي جاعلا من التاريخ أداة في خدمة السلطة. لكن نقطة الانعطاف الحقيقية حدثت لما دفع الفيلسوف الفرنسي المعاصر ميشيل فوكو بهذا المجال المعرفي باتجاه مغاير تماما، إن من جهة الموضوع أو من جهة المنهج أو الغاية، عندما تولى في الكوليج دو فرانس نهاية سنة 1970 كرسي تدريس مادة تاريخية هي: تاريخ أنساق الفكر Histoire des systèmes de la pensée. وليس هذا فحسب، بل تاريخ الأفكار هو من المواضيع الذي حازت اهتمام فوكو في مرحلتي تفكيره: مرحلة البنيوية ومرحلة ما بعد البنيوية.

سنحاول عبر هذا المقال الاقتراب من هذا الفرع المعرفي، الذي باعتراف أهم رواده (فوكو) لا يزال يكتنفه الغموض وتعوزه الدقة والضبط، ويمكن أن نجد تسويغا لهذا الالتباس والغموض إذا ما اعتبرنا تاريخ الأفكار نوع من أنواع المعرفة التي تنتمي إلى جنس العلوم الإنسانية التي يَسِمُ الالتباس جل مفاهيمها. وتجاوزا لهذه الصعوبة، ولصعوبة أخرى ناشئة عن جدة هذا الموضوع نحاول أن نقاربه من خلال بيان مفهومه وأبرز أعلامه، على أن يكون تركيزنا على مؤرخ الأفكار والفيلسوف الفرنسي المعاصر ميشيل فوكو. كل هذا من خلال طرح الإشكال التالي: ما هو المفهوم الذي قدمه ميشيل فوكو لتاريخ الفكر، وهل تمكن من خلال المنهج الذي استحدثه من أن يحرره من أسر التصور الميتافيزيقي وأن يقتحم المسكوت عنه واللاَّمفكر فيه المترسب في طبقات الثقافة الأوروبية والمكبوت في لا وعيها المعرفي؟

1. التاريخ الفكري المفهوم والنشأة

إنَّ مضمون مصطلح التاريخ الفكري التاريخ الفكري أو تاريخ الأفكار (Histoire des idées) واسع وعام؛ إنّه فرع من الدراسة التاريخية يتميز بعدم وجود حدود واضحة له فـ« ليس من السهل تمييز فرع معرفي كتاريخ الأفكار، وإبراز سماته، نظرا لتقلب موضوعه وعدم دقة حدوده، وكون مناهجه ذات أصول مختلفة المشارب ولم تعرف مسيرته الثبات» (فوكو، 1987، ص126). ومع هذا يمكن أن نميز بين ثلاثة مظاهر له: إذ يشبه في **المظهر الأول**، التاريخ الفكري ما سماه الفيلسوف هيجل بفلسفة التاريخ، هو التاريخ الشامل أو الكلّي. وهذا النَّوع من التاريخ تراكمي خطي تصاعدي وشامل ، يقوم على النَّظر العقلي. ويبحث التاريخ الفكري في **المظهر الثاني** انتشار بعض الأفكار أو المؤلفات الهامة في عصر من العصور أو في بيئة من البيئات، ويظهر ذلك خاصة في دراسات العصور الوسطى، والعصور السابقة لها، قبل اختراع الطباعة. بهذا المعنى يكون التاريخ الفكري عبارة عن دراسة نصيب نظرية ما من الازدهار والانتشار بين نخبة محدودة من العلماء والمفكرين. أما في **المظهر الثالث** ـ وهو الأكثر ذيوعا ـ يهتم تاريخ الأفكار بدراسة انتشار الأفكار من أي نوع كانت: أدبية، أخلاقية، سياسية، أو دينية، جمالية، علمية، في بيئة أو حقبة معينة(وهبة و المهندس، 1984).

وتاريخيا، ظهر مصطلح تاريخ الأفكار أو مصطلح التاريخ الفكري (History of Ideas ـ Intellectual History) في حقل الثقافة الأنكلوساكسونية. والغاية من اقتراح هذين المصطلحين هي تحديد ميدان جديد للبحث التاريخي، يهتم بشكل خاص بنشأة الأفكار ودلالاتها واستعمالاتها وتطورها، وتأثيرها عبر العصور. ويعد الفيلسوف والمؤرخ الأمريكي آرثر لوفجوي (1873- 1962) Arthur Oncken Lovejoy أوَّل من قام بإدخال هذا المصطلح في حقل الثقافة الأمريكية ولقن طرق دراسته في العقود الأولى من القرن العشرين، من خلال عمله كبروفيسور للتاريخ الفكري في جامعة جون هوبكنز وهناك أشرف على اجتماعات نادي تاريخ الأفكار الذي قام بتأسيسه سنة 1928 مع مجموعة من زملائه، كما ترأس مجلة تاريخ الأفكار le Journal of the History of Ideas التي أسسها عام 1940. ومن أهم كتبه في هذا المجال كتابه: سلسلة الوجود الكبرى (1936)، الذي أوضح من خلال مقدمته كتابه إشكالية وموضوع هذا العلم الذي هو بصدد تأسيسه.

ويعتمد علم تاريخ الأفكار عند لوفجوي على مفهوم الوحدات الفكرية (Unit-Ideas) كوحدات تحليلية قياسية، كونها تشكل لبنات البناء الأساسية لتاريخ الأفكار من جهة وكونها تتمتع بدرجة معينة من الثبات، ومهمة مؤرخ الأفكار هي اكتشاف هذه الوحدات الفكرية وتبيان مواقع مدها وانحسارها، وارتباطها وانفصالها عبر الحقب الزمنية المختلفة. ويشبه لوفجوي دور الوحدات الفكرية في تاريخ الأفكار بالتفاعل الكيميائي، فكما أن الذرات الكيميائية تتمتع بصفات ثابتة لا تتغير، إلا أنها ترتبط مع ذرات أخرى لتكوين مركبات كيميائية ذات صفات جديدة تختلف عن صفات الذرات المكونة لها (Arthur O. Lovejoy, 2001, p. 3.23).

لا يفوتنا ونحن بصدد التعريف بهذا الفرع المعرفي، أن نذكر أهم الخصائص التي يتميز بها عن أنواع التاريخ الأخرى، ومن ذلك: تركيزه على العالم الباطني للفكر، لا على العالم الخارجي للحياة العملية. يؤرخ للأفكار وليس

للأحداث أو الأشخاص، ومن هنا تكمن صعوبة أو دقة هذا الحقل، لأنَّ الأفكار ليس لها وجود مادي وحسي يمكن كشفه ومعاينته وتشخيصه بدقة ووضوح. والأفكار التي تعد محور اهتمام هذا العلم، هي الأفكار التي تحظى بالانتشار وهذا المضمون هو ما يؤكده لوفجوي، فتاريخ الأفكار عنده « مهتم اهتماما شديدا بالأفكار التي تحظى بالانتشار على نطاق واسع». (باومر، 1987، ص 16). وقد يكون هذا الانتشار خارج أحد نطاقات الفكر، حتَّى ولو كان في رحابة نطاق كالفلسفة. وقد يتجاوز هذا الانتشار الأفراد من خلال الجماعات الأكبر والحركات الأكبر للبشر، ومن ثمَّ فهو العلم النموذجي للعلاقة بين النطاقات والمجالات المعرفية المختلفة. ومن أمثلة هذه الأفكار نذكر: فكرة الطبيعة، فكرة التطور، فكرة العولمة، فكرة اللاشعور وغيرها من الأفكار التي ارتحلت من مجالها الذي استخدمت فيه أول مرة إلى حقول أخرى.

وتاريخ الأفكار وإن ينسب كفرع معرفي جديد إلى التاريخ الحديث، إلا أن الذين بحثوا نشأته لم يتفقوا حول رأي واحد. يذكر المؤرخ الأمريكي هاري إلمر بارنز Harry Elmer Barnes (1889ـ 1968) أن تاريخ الفكر ظهر في عصر النهضة مع فرنسيس بيكون الذي أكد بيكون على أنَّ السيطرة على الطبيعة ـ هدف العلم عنده وحلم أطلنطس الجديدة ـ لا يمكن أن يتحققا من دون وعي تاريخي يأخذ في الحسبان أهمية التأريخ للأفكار ومن ضمنها المعرفة العلمية بوصفها جزء أساسيا من التاريخ ككل. هذا النَّوع من التاريخ يسميه بيكون التاريخ الأدبي، وهو حسب تصنيفه فرع من فروع التاريخ المدني. ويرجع المفكر والمؤرخ الأمريكي فرانكلين باومر Franklin L. Baumer (1913ـ 1990) نشأة تاريخ الأفكار إلى عصر التنوير، فالأصل الحديث لتاريخ الأفكار لينحدر من عصر التنوير في القرن الثامن عشر، أو من المؤرخين المتفلسفين من أمثال فولتير الذين حاولوا الربط بين التقدم وارتقاء العقل أو انتصار العقل على الخزعبلات، وعلى عقيدة الخلاص. (عصام، 2009، ص 12). هذا العصر الذي آمن بقدرة الإنسان على تقرير مصيره وكتابة تاريخه؛ تاريخ الإنسان وقد تحرر من ربقة الكنيسة تاريخ الفكر؛ تاريخ العقل الذي يمضي قدما نحو الرَّفاه والإنسانية والعدالة، لم يعد الملوك ولا الساسة وحروبهم وانتصاراتهم أو انكساراتهم هو محو اهتمام المؤرخين، بل صار العقل وما ينتجه من فكر وعلم ومعرفة هو محور الكتابة التاريخية.

ويؤكد فوكو ـ خلافا للطرحين السابقين ـ في كتابه الكلمات والأشياء أنّ الأصل الحديث لتاريخ الأفكار يعود إلى انتشار النزعة التاريخية، الَّتي بلغت مداها في القرن التاسع لما سعى مؤرخوه لتأريخ كل شيء، ولكتابة تاريخ عام عن كل شيء وللعودة دوما بالزمن الى الوراء (فوكو،1990، ص 302). فظهرت على إثر هذا التحول أنواع ومجالات عديدة ومتنوعة من التاريخ: تاريخ العلم وتاريخ القانون، كما بدأت تتداخل وتتشابك فروع مختلفة من التاريخ وإن استقلت بمرور الوقت وتحددت معالمها ومسمياتها كالتاريخ الاجتماعي والتاريخ الثقافي والتاريخ الحضاري.

إنَّ هذه الآراء على تباينها تكشف عن ضرورة وجود فرع معرفي يتناول الخصائص والسمات العامة للمعرفة وأن يربط بينها وبين العصر الذي أنتجها، وهو ما أدركه الهرمينوطيقي والكانطي المحدث مؤرخ الأفكار الألماني فيلهلم دلتايWilhelm Dilthey (1833-1911) الذي كان معنيا بتأصيل علوم الروح وتخليصها من تبعيتها المنهجية للعلوم الطبيعية من خلال جعل الهيرمينوطيقا منهجا لها. كانت نقطة البدء لديه هي البحث عن الأصل الراسخ الذي من خلاله يمكن لقضايا العلوم الإنسانية أن تشكل حقلا علميا مشروعا. وبالفعل وجد هذا الأصل الراسخ والمحك الأساسي في التَّعرف على بنية الظواهر الإنسانية ورؤية المشاكل الكبرى في الحياة والفكر، في التاريخ، فهو المدخل الأساسي لفهم علوم الروح أو العلوم التاريخية كما يسميها أحيانا. لكن لم التاريخ بالذات وليس علما آخر كعلم النفس مثلا؟ الجواب بلسان دلتاي هو أن « ليس من خلال الاستبطان بل من خلال التاريخ وحده يتأتى لنا فهم أنفسنا» (عادل، 2003، ص 119).ونحن نفهم فهما تاريخيا لأنّ الإنسان كائن تاريخي في جوهره ، فعالم الإنسان إذن هو عالم التاريخ وعالم الأفكار. ومن الفلاسفة الذين وجهوا الكتابة التاريخية في مجال تاريخ الأفكار وجهة منهجية ومعرفية جديدة ميشيل فوكو، محدثا ثورة في مجال التاريخ.

2. أسس ومنطلقات التاريخ الحفري(التاريخ العام) عند فوكو

أشرنا في مقدمة هذا المقال أن من بين المواضيع التي حازت اهتمام فوكو في مرحلته البنيوية، تاريخ الأفكار منظورا إليه من زاوية حفرية أركيولوجية، بالرغم من أن تهمة بارزة توجه إلى فلاسفة البنية ومن ضمنهم فوكو، وهي أن البنيوية فلسفة معادية للتاريخ، ناهيك عن مناداتها بموت الذات المؤسسة لهذا التاريخ، لكن فوكو أنكر هذا التهمة، قائلا:« إنّي مغتبط لكوني قتلت فعلا أسطورة التاريخ الفلسفية هذه، تلك الأسطورة التي يتهمونني بقتلها، فهذا بالضبط ما كنت أود قتله، لا التاريخ بشكل عام. إنَّ التاريخ لا يقتل ولكن قتل التاريخ كما [يفهمه] الفلاسفة هو بالضبط ما أسعى إلى فعله وبكل تأكيد» (فوكو، 2006، ص34). وفعلا يشكل التاريخ المحور الأساسي الذي دارت حوله أبحاث فوكو ودراساته: بداية من "تاريخ الجنون" مرورا بـ" تاريخ العيادة" و"تاريخ العقاب" وصولا إلى "تاريخ الجنسانية"، من خلال طرح تساؤلات نقدية حول هذا التاريخ وحول مناهجه وحدوده وموضوعاته، داخل ورشات تاريخية، تحيل الهوامش إلى متون، وتمنح الكلام للمسكوت عنه وتستذكر المنسي وتبث الحياة في ميت الفكر.

واستند فوكو في بلورة رؤيته لهذا النوَّع من التاريخ، وتحديد هوية منهجه إلى التصور النتشوي للتاريخ، وهو تصور جنيالوجي ـ كما سنرى لاحقا ـ يضاف إلى هذا، المنجز الثوري الذي حققته مدرسة الحوليات ومؤرخو التاريخ الجديد، فخلافا للنَّمط التقليدي لتاريخ الأفكار أخذت الكتابة التاريخية مع مؤرخي مدرسة الحوليات أبعادا جديدة، بموجبها أصبح التاريخ إعادة بناء للماضي وليس إحياء له من خلال طرح المشكلات الكبرى للإنسان قصد الكشف عن وجه جديد لعلاقة الحاضر بالماضي؛ فلا يكفي فهم الحاضر الاعتماد على الماضي، وإنَّما يجب فهم الماضي بالاعتماد على الحاضر (لوغوف، 2007، ص92،93). ومن مؤرخي مدرسة الحوليات

الذين تركوا أثرا بارزا في فوكو، المؤرخ الفرنسي فرديناند بروديل F.Braudel (1902.1985)، الذي دعا إلى تجاوز التاريخ السردي/الإخباري، التاريخ الحدثيEvénementielle باعتباره تاريخا خطيا Linéaire يقوم على دراسة الوقائع السياسية البسيطة في الأزمنة القصيرة، والانتقال إلى التاريخ اللاَّحدثيNon-Evénementielle، أي دراسة تاريخ البنى الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وذلك في سياق المدد الزمنية الطويلة أو ما يعرف عنده بنظرية الأجل الطويل، بالاعتماد على منهج نقدي . إشكالي يساءل الخبر، ويساءل الوثيقة التاريخية. (عبد اللاوي، 2009، ص 61).

إضافة إلى هذا يعتبر فيلسوف العلم غاستون باشلار (1884-1962) في نظر فوكو، من الأوائل الذين أحدثوا قطيعة إبستمولوجية في مجال العلوم ملغيا التعدد اللاَّمحدود للمعارف وتقدمها البطيء، مركزا على رصد الانقطاعات الَّتي تتباين تباينا كبيرا فيما يخص طبيعتها وصفتها. مثل الأفعال والعتبات الإبستمولوجية الَّتي تقطع الطريق أمام التراكم اللاَّمحدود للمعارف، وتوقف نموها البطيء (فوكو ، 1987، ص6). ويصبح تاريخ العلم وفقا لهذا بناء وتركيب لماضي المعرفة العلمية، أين يحل الانفصال والقطيعة محل الاتصال وعوض البحث عن الأصول والحديث عن التقدم كخاصية ملازمة لتاريخ العلوم حيث يكون اللاَّحق مرتبطا بالضرورة بالسابق في متصل زماني متجانس، كما هي الحال في نموذج تاريخ العلوم عند أوغست كونت (1798ـ 1857). ولئن دشن باشلار القول بالمفهوم الإبستمولوجي لتاريخ العلوم، فإنَّ تلميذه جورج كانغيلام (1904-1995) ارتقى به إلى مستويات عالية جدا من التفكير والتنظير لما اقتحم من خلاله تاريخ البيولوجيا والكائن الحي. إلا أن ما يميز تاريخ العلم عنده أن ما يعُدَّ مأزقا لزمن طويل يصبح مخرجا ذات يوم وما يبدو مسألة ثانوية في تاريخ العلم، يمكن أن يصبح فجأة قضية مركزية في معالجة مشكلة يتمَّ اكتشافها حديثا. مقتفيا أثر أستاذه(كانغيلام)، ركز فوكو في أبحاثه على ما هو هامشي ومغيّب، وما يعد جزئيا وبلا قيمة، وآمن بأن الحقيقة العلمية تختفي وراء مظاهر الصمت وألوان التهميش والاقصاء. بهذا يكون فوكو حسب ليتشه(Lechte.John) من القلائل الذين حددوا بإدراك ثاقب، الإحداثيات العامة لمشروع كانغيلام من وجهة النَّظر البنيوية (البستاني، 2009، ص 43). لما دعا مقابل التاريخ الشامل أو الكلِّي للفكر الأوروبي، إلى ما أسماه بالتاريخ العام. فما المقصود بالتاريخ العام؟

يتأسس التاريخ العام عند فوكو على فلسفة للحدث؛ فالتاريخ ليس ذاكرة وليس ماضي بقدر ما هو «الحدث الإنساني»، وهذا يقتضي إعادة النَّظر في كيفية كتابة التاريخ؛ من خلال قراءة «الماحدث الفكري» وإعادة رؤيته بعين «المايحدث الكينوني» (فوكو، 1990، ص18). بمعنى قراءة الماضي من خلال معطيات الحاضر، لأجل هذا نحت فوكو مصطلح حفريات بناء على مساءلة ومحاكمة التصور التقليدي للتاريخ، في نظره التاريخ ظل سجين التصور(الهيجلي) الميتافيزيقي: الزمان المطلق، وحدة الأحداث الزمنية وتواصلها وتسلسلها واتصالها، الذات المتعالية في تأسيس التاريخ، التاريخ كوحدة سردية كبرى غاية في الانسجام، لها بداية معلومة وتنحو باتجاه المطلق، لتحقيق غايتها القصوى.

والحال أن فوكو لا يهتم بالأحداث الهامة والعظمى أو كما تمَّ تصويره كذلك، ولا يهدف إلى تتبع هجرة المفاهيم وارتحالها من بيئة معرفية إلى أخرى، إنه بالأحرى مهتم بمجموع الأقوال والممارسات اليومية، أو ما يصطلح عليها بالتشكيلات الخطابية، الظاهر منها أو الخافي في حياة الأفراد والشعوب: أحاسيسهم ومشاعرهم جذامهم، شذوذهم وحتَّى اجرامهم، يقوم على جمع الشذرات والتقاسيم والأحداث البسيطة، والتحري عن الآثار المتخفية أو المنسية أو المُعتَّمة، والفوارق والخصوصيات. وكأنه استجاب لدعوة نيتشه المُلحّة لكتابة ما لا تاريخ له بعد، لما تساءل الأخير: « إلى حد الآن لا شيء ممّا أعطى للوجود خصوصيّته يملك بعد تاريخه. هل هناك تاريخ للحبّ، للجشع، للحسد، للوعي، للشّفقة للقسوة؟». (العيادي، 1994، ص71). وهكذا وجه فوكو اهتمامه صوب الخطابات المهمشة والمطحونة، الَّتي تشكل التاريخ الحقيقي للأفكار، ذلك الذي يُحوّل الوثائق إلى نصب أثرية لننفذ منها بعد ذلك لمعرفة زمن تشكُّلها بوصفها خطابا سائدا تلوكه الألسن وقيما يؤمن بها النَّاس طوعا أو كراهية.

وبالتعارض مع التاريخ الميتافيزيقي الذي يحتفي بالاتصال ويتأسس عليه، يستبعد فوكو الاتصال ويهتم بمفهوم الانفصال نفسه، الذي طالما عُدَّ علامة على التشتت الزماني الذي ينبغي حذفه من التاريخ، لأنه يشكل عقبة تمنع وصول المؤرخين للحقيقة، سيتحول إلى موضوع له، وأحد العناصر الأساسية للتحليل التاريخي، وأحد السمات المميزة للتاريخ في ثوبه الجديد، طالما أن:

- الانفصال ليس مفروضا على المؤرخ، بل إنَّ المؤرخ هو الذي يبحث عنه ويقتفي أثره لأنَّ الحقيقة في مجال تاريخ الأنساق الفكرية الذي يجب أن يكتب فعلا، تختلف عما يحاول المؤرخ الرسمي تصويره من أحداث هامة وعظمى(ماكرو تاريخية)، أو ما أريد لها أن تكون كذلك.
- يعبر الانفصال لدى المؤرخ عن معاينة موضوعية، لا يمكن بأي حال من الأحوال تجاهلها أو الغاؤها،
- مهمة المؤرخ أن يعطي للانفصال صورته ووظيفته النَّوعية (فوكو،1987، ص 10).

ولما استحال الأمر في التاريخ إلى هذا المآل؛ تاريخ يطبعه الانفصال والقطيعة؛ يشكله الهامشي والمُعوَّج والشوارد والشذرات والذرات والكسرات والانحناءات، فمن الضروري أن نسائل الحقيقة بأسئلة تخرج هي الأخرى عن سياقها التقليدي المألوف، إذ ذاك والتساؤل لفوكو« كيف يحدث أنَّه خلال بضع سنوات تتوقف ثقافة ما عن التفكير بالطريقة التي درجت عليها سابقا، وتشرع في التفكير في شيء آخر وبطريقة أخرى؟» (فوكو 1990. ص 189). وجد فوكو الإجابة عن هذه الأسئلة في المنهج الذي سماه، المنهج الأركيولوجي أو الحفري، وقد خصه بكتاب أركيولوجيا المعرفة، وأكد فيه أنه لن يرتاح له بال ويهدأ له خاطر، ما لم يقم بتمييز طريقته عن تاريخ الأفكار وما لم يبرز وجه اختلاف التحليل الحفري عن المناهج الوصفية لذلك التاريخ(Foucault,1996 ,p179). فما ذا يعني فوكو بالأركيولوجيا؟

يتكون مصطلح الأركيولوجيا Archeology من الناحية الإتيمولوجية (الاشتقاقية) من مقطعين يونانيين Archaios ويعني: القديم Logos ويعني علم. ويقابله في اللُّغة العربية علم الآثار. أما من النَّاحية الاصطلاحية فيدل على العلم الذي يدرس الماضي البشري أساسا، ويحاول تفسيره من خلال المعالم والشواهد والأثار الحضارية المندثرة التي يكشف الحفر عنها والتنقيب، وعادة ما يعتبر هذا العلم فرع من فروع علم التاريخ. إلاَّ أنَّ فوكو إذ يستعمل هذا المصطلح، يستعمله في معنى مجازي ينفرد به، يقصد من خلاله التعبير عن فكرة سبر أعماق المعارف في عصر معين، للبحث عن "الما قبلي" الكامن في المستوى العميق، الذي يعطي المعارف أشكالها ومضامينها.

اعتمد فوكو تحقيقا لمسعاه على مفهوم الخطاب ويقصد بالخطاب مجموعة الممارسات التي يقوم بها الإنسان في سياق وضع تاريخي معين من أجل معارف تتعلق بالذات والسلطة والمعرفة، أو باختصار هو نمط الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية السائدة والمسيطرة في فترة من الفترات التاريخية. لذلك سعى فوكو إلى تحويل كل أشكال الحياة الثقافية وتصنيفاتها إلى البحث في أنواع الخطاب، للكشف عن الأرضية التي تقوم عليها المعارف في مختلف الحقب، أو بتعبير آخر الإبستمية(Epistémè) التي تحكم في حقبة زمنية مجمل الخطابات المعرفية. وكشف عن طريق الحفر الأركيولوجي وجود انقطاعين كبيرين في تاريخ الفكر الغربي الانقطاع الذي دشن العصر الكلاسيكي نحو منتصف القرن السابع عشر، وذلك الذي طبع في بداية القرن التاسع عشر عتبة حداثتنا. وفي كتابه الكلمات والأشياء قدم تقسيمه المنهجي الثلاثي لبنية العقل(Ratio) الغربي: عصر النهضة، العصر الكلاسيكي العصر الحديث. وعالج في كل عصر الإبستيمي الخاص به على النحو التالي:

1.2. عصر النهضة ـ إبستيمي التشابه

يبدأ هذا العصر من القرن السادس عشر وينتهي منتصف القرن السابع عشر. اتسم مجاله الإبستمولوجي بالتناهي وبطابعه الدائري(الفلك الكروي" la sphère) تميز بسيطرة مقولة التشابه على الحقل المعرفي، فهو الذي قاد تفسير النصوص وتأويلها، ونظم لعبة الرموز وسمح بمعرفة الأشياء المرئية واللامرئية، وقاد فن تمثلها وتصورها. كان العالم ينطوي على نفسه؛ فالأرض تكرر السماء؛ والعشب يطوي في أوراقه الأسرار التي تخدم الإنسان، وكان الرسام يقلِّد الفضاء. كما اعتقد علماء تلك الفترة أنه ما دامت الجوزة تشبه الرأس فمن المفروض أن تعالج آلام غلاف الجمجمة، ومن المفروض أيضا أن تعالج نواتها آلام الرأس الداخلية (فوكو،1990، ص39). سيتعرض هذا الإبستمي إلى أزمة يجسدها دون كيشوت على نحو مأساوي دال، لقد كان دربه عبارة عن البحث عن المتشابهات، لكنّه ما إن يقترب حتى يفاجأ بالعكس(فوكو،1990، ص62). إنّها مأساة وعي النهضة الأوروبية، ورمز انتهاء منظومتها المعرفية، وإيذان بابتداء عصر جديد يتسم بانفصال الكلمات عن الأشياء وانحلال التشابه وزواله، ستظهر على نحو مفاجئ حقبة جديدة ذات إبستيمي مختلف هذه الحقبة تسمى بالعصر الكلاسيكي.

2.2. العصر الكلاسيكي ـ إبستيمي التمثل

يمثل العصر الكلاسيكي (القرنان السابع عشر والثامن عشر) اللحظة التي سيتحقق فيها أول انقلاب أو انقطاع في النظام المعرفي في الفكر الغربي مع نهاية القرن السادس عشر إذ انفصمت عرى العلاقة الصميمية بين الكلمة والشيء، وتبدلت العلاقة الناظمة بينهما من علاقة كينونية مترابطة تقوم على مبدأ التشابه إلى علاقة تمثيل، حيث أصبحت الكلمات مجرد تمثيل للواقع لا جزء منه. كما عرف هذا الإبستمي انبثاق الكوجيتو الديكارتي، الذي بموجبه أصبحت الذات قطب الرحى، وأضحت فكرة النظام تحتل مكانة الصدارة في جميع مجالات المعرفة الإنسانية، عوضا عن فكرة الفلك الكروي وحل التحليل والتصنيف محل التشابه والتناظر، ودشن العصر الكلاسيكي بذلك نمطا جديدا من التمثلRepresentation: حيث أنجزت مجموعة من الخرائط واللوحات انطلاقا من علوم الحساب قصد الإحاطة بالعالم المحيط، كما حل النَّحو العام محل النَّحو المقارن (فوكو،1990، ص39).

3.2. العصر الحديث ـ إبستيمي التاريخ

يبدأ هذ العصر من القرن التاسع عشر على إثر حدوث تحول جديد ومفاجئ بموجبه لم تعد اللُّغة قادرة على تأطير المعرفة الدقيقة للأشياء، فبدل التمركز حول علاقة الكلمة بالشيء أصبح الإبستمي الجديد يدفع نحو دراسة البنية الكامنة من خلال تتبع صيرورتها وتطورها، والسبب الرئيس لذلك هو أن التاريخ يعتبر« الأرضية التي تنشأ، عليها كل الكائنات وتعرف لمعتها العابرة» (فوكو، 1990، ص191). في ظل هذا النموذج وبالتزامن مع ظهور علوم جديدة(علم اللغة، علم البيولوجيا، علم الاقتصاد) وبتأثير من الأنتروبولوجيا التحليلية والفلسفة النقدية للفيلسوف الألماني كانط ظهر المفهوم الحديث عن الإنسان، لا كذات عارفة بل كموضوع للمعرفة أيضا لما أضاف كانط سؤالا رابعا: ما هو الإنسان؟ معتبرا إيَّاه السؤال المحوري الذي يختزل كـ الأسئلة؛ فكل ما يثيره البشر من موضوعات لا يكاد يعدو أسئلة ثلاثة: ما الذي يمكنني أن أعرفه؟ وما الذي ينبغي لي أن أعمله؟ وما الذي أستطيع أن آمله؟ (Foucault,1966,351,35) وجاءت الإجابة على نحو غير مسبوق معلنة عن معرفة نوعية خاصة بالإنسان، وتكاثفت تلك المعرفة أو الأصح في نظر فوكو تلك **الخطابات** إلى الحد الذي صار معه «الحدث» إنسان العلوم الإنسانية أسطورة العصر الحديث.

لكن الوضعية الَّتي تحتلها العلوم الإنسانية ضمن إبستيمية هذا العصر، هي وضعية من التأزم وعدم الاستقرار ما يفقد العلوم الإنسانية التوازن الإبستمولوجي المفترض، خاصة وأنّ هذه الأزمة ليست آنية، كما يقر ذلك الوضعيون وأنّه يمكن تجاوزها بهدم التصور الفلسفي التقليدي للإنسان أي بالتخلي عن (المنزلة الميتافيزيقية) أي بوصفه (ماهية) يشكل الوعي والوحدة الأنطولوجية، والحرية أهم محاورها، في المقابل السعي لدراسة الإنسان كما تدرس العلوم الطبيعية. إنَّ ما يجعل العلوم الإنسانية في نظره تفتقر للتوازن الإبستمولوجي ليس كثافة موضوعها القصوى وإنّما التشكيلات التي تحدد وضعيتها، و تجذرها في الإبستمية الحديثة. وأنّ

هذا الاختلال ليس ظرفيا و إنّما هو جوهري لا يشهد على كونها علوما خاطئة فحسب بل إنّها ليست علوما على الإطلاق، فهي لا تزال لحد الآن تشغل وضعا يسميه بالوضع الميتا إبستيمولوجي-Méta Épistémologique(فوكو،1990، ص192) وأنّ ما قدمته الثقافة الغربية حول الإنسان لا يمكن أن يكون موضوعا للعلم. بل يذهب فوكو إلى أبعد من ذلك إذ يعلن أن نهاية الإنسان وشيكة وأنّه « سوف يندثر مثل وجه الرمل مرسوم على حد البحر»(فوكو،1990، ص313) وتلاشيه سيتيح الفرصة لبروز كينونة اللغة وتفعيل هيمنتها وشموليتها ، ونقلها من حالة الجزئية التي كانت تعيشها مع الإنسان إلى حالة الكلية التي غاب فيها الإنسان، وانزوى خلف قضبان أنظمة اللغة وأبنيتها.

4. التاريخ الفكري والمنهج الأركيو ـ جينيالوجي

1.4. تاريخ الجنون وأركيولوجيا القطيعة

يستهل فوكو تأريخه للجنون من نهاية العصر الوسيط، أين حدد للجنون موقع الصدارة ضمن هيراريكية(تراتبية) الرذائل، حيث كان شائعا مع بداية القرن الثالث عشر في باريس كما في أميان، أن الجنون كان يشكل أحد الثنائيات التي تتقاسم النفس البشرية: (الإيمان # الوثنية)، (الطهارة # الفسق)، (الحذر #الجنون)، (الطاعة# التمرد) (الصبر# الغضب) (الليونة# الصلابة)، (الأمل# اليأس) وغيرها(Foucault,1972.p33) كما صاحب هذا التصنيف اعتقاد ديني مفاده أن الجنون روح شريرة سكنت جسد المجنون أو هو مزايدة شيطانية على عمل(خلق) الله. ووفقا لهذه النظرة الأخلاقية للجنون بدأ يسود مع نهاية العصور الوسطى اعتقاد بأن إجراءات تطهيرية من قبيل "سفينة الحمقى" كفيل بإقصاء المجانين من المجتمع؛ حيث كان المجانين المطرودون من المدينة، يُعهَد بهم أحيانا إلى بعض البحارة والسفن، التي كانت مخصصة هذه المرة بشكل كامل للقيام برحلات الحج العلاجية لكنها من منظور أركيولوجي حالة من حالات النفي والعزل والاقصاء، أو التطهير الرمزي للمجتمع.

عصر النهضة: بالرغم من استمرار نفي المجنون واستبعاده إلا أنه كان في عصر النهضة حرا ومندغما في الحياة الاجتماعية إلى حد ما، ومرد ذلك إلى التسامح الذي أبداه هذا العصر بإزاء الجنون، تسامحا يعكسه الحضور المكثف للجنون وشخوص المجانين في متون ومدونات الأدباء(روايات، أشعار...) وآثار الفنانين(لوحات فنية، مسرحيات...)الذين ارتأوا أن الجنون كامن في صلب العقل، أو كما يقول فوكو« لقد أصبح الجنون شكلا مرتبطا بالعقل أو أصبح الجنون والعقل منتظمين داخل علاقة أبدية لا فكاك منها. وهي علاقة تجعل لكل جنون عقلا يحكم عليه ويتحكم فيه. وكل عقل له جنونه الذي يجد حقيقته التافهة».(فوكو، 1966، ص51). وهذا يعني قبوله كحالة ملازمة للوجود الإنساني. وآية التسامح مع الجنون في هذا العصر، اعتباره مصدرا للحقيقة والحكمة مما كان يمنحه وضعية إيجابية كما يوضح ذلك الثناء على جنون إراسم Erasme «خذوا الحكمة من أفواه المجانين». وهكذا فيما يكتب فوكو« أعاد عصر النهضة إلى الجنون صوته»(Foucault,1972. p57) عندما

أصبح موضوعا للكتابات الأدبية وتحول إلى" **فن خلاق**" يعبر عن الحقيقة عن طريق الطرافة والهزل واللعب والسخرية، عند أمثال دي سرفانتس ووليام شكسبير وإراسم.

العصر الكلاسيكي: لم يصبح الجنون نقيض العقل بصورة قطيعة، إلا في العصر الكلاسيكي(1657 ـ 1794)، حيث تم الفصل الواضح بين العقل واللاَّعقل، على يد ديكارت الذي انتهى بعد رحلة شك مضنية إلى أن الذات المفكرة، لا يمكن بأي من الأحوال أن يعتريها الجنون، فهي هي الحائز الوحيد للحقيقة، وأن وجود الفكر تبعا لذلك يتحقق في الوجود العاقل، على حين يهبط الجنون إلى درك اللاوجود، وتبعا لهذا يكون ديكارت قد قضى على القسمة الموجودة بين **العقل اللاعاقل ولاعقل المعقول**، مجردا في الوقت ذاته الجنون من كل الامتيازات داخل النسق الاجتماعي والثقافي، سالبا إيّاه القدرة على الكلام وكاشفا عنه هالة التقديس والهيبة التي سبق وأن منحه إيَّاها عصر النهضة.

وترتب على نفي المجنون على المستوى النَّظر الفلسفي نفي على المستوى الواقعي والمؤسسات؛ فالمجنون الذي لم يكن يحبس قبل ظهور المستشفى عام 1661، ملأ الفراغ الذي تركه اختفاء مرض الجذام من أوروبا، واستبدلت "سفينة الحمقى" بدور الحجر، وفيها اختلطت صور الجنون ووجوهه بحالات أخرى يطلق عليها فوكو اللاَّعقل، فالمرضى(المصابون بالأمراض التناسلية) والخارجين عن القانون والمشردين والمتسولين والعاطلين عن العمل تمَّ عزلهم في تلك المحاجر، وموروست بحقهم أفعال لا تمت بصلة للإنسانية؛ ولم يكن الغرض الأول من الحجز غرض صحي علاجي، بل اجراء مدني أملته ضرورة الشغل ومكافحة البطالة، ولذا فقد ارتبط منذ البداية بالأزمة الاقتصادية الخانقة التي مسّت العالم الغربي في تلك الحقبة.(Foucault,1972. P86)

العصر الحديث: عرف هذا العصر، تحولا في خطاب الجنون؛ لقد حل مستشفى المجانين محل المستشفيات العامة التي سادت عموم أوروبا وعاملت المجانين معاملات وحشية. حدث هذا فيما يؤرخ فوكو سنة 1793 على إثر تعيين الطبيب الفرنسي فيليب بينيل (1745 ـ 1826)لإدارة قسم المجانين في مستشفى بيستر، تزامنا وتعيين الطبيب وليم توك(1896 ـ 1983) في انكلترا في مصحة يورك سنة 1796. فهما في نظر مؤرخي الطب النفسي من يعود إليهما الفضل في تحرير الجنون، وتغيير أحوال وأوضاع المستشفيات العقلية، ومعاملة المرضى العقليين على أساس إنساني وعلمي منهجي.

لكن فوكو لم ير في منجز محررا الجنون(بينيل/ توك) إلا استلابا آخر سيتعمق مع سيجموند فرويد، الذي وإن نزع مظاهر القمع والإدانة الأخلاقية التي مورست في المصحات العقلية، وخفض من دور الصمت والاعتراف والنظرة كخطوات منهجية للتعامل مع الجنون وحرر المريض من وجوده في ذلك المصح، إلا أنه عجز عن سماع صوت اللاعقل وعجز عن فك رموز الجنون، لما ضخم من دور الطبيب، إلى حد صار معه الأخير في نظر المريض "صانع المعجزات" وكأننا انتقلنا من مركزية المصح أو المستشفى العام، إلى مركزية الطبيب.(p33 . Foucault,1972)

2.4. تاريخ السجن وجنيالوجيا الحقيقة

هل انتهى الحفر الفوكوي في تاريخ الفكر الغربي إلى نهايته، أم أن مؤرخنا سيواصل هوايته أو لنقل حرفته أي النبش والحفر والنقض، لا لشيء إلاَّ لأنَّ الأركيولوجيا لم تقدم له الجواب الشافي لسؤال طُرح تلميحا في ثنايا مؤلفاته الأولى، وطُرح تصريحا في مؤلفاته اللاحقة؟ يدرك فيلسوفنا هذا الأمر جيدا، ولعل هذا ما يفسر توجهه إلى اعتبار أن لا شيء يضمن أنَّ ميدان الأركيولوجيا سيبقى قارا، ومستقلا بنفسه (فوكو،1987، ص188). وبالفعل شرع فوكو في استخدام منهج جديد في تقصيه لتاريخ الفكر الغربي، أو بالأحرى جدد استخدام منهج قديم يعود إلى نيتشه. وبدأ استخدامه لهذا المنهج منذ كتابه نظام الخطاب (1972) لكنه أصبح أكثر بروزا في مقالته «نيتشه والجنيالوجيا والتاريخ»، أما الخطوة الحاسمة في التحول المنهجي فيراها النُّقاد بصفة خاصة في كتابيه: المراقبة والعقاب(1975) والجزء الأول من تاريخ الجنس (1976)، حيث قام فوكو بقلب نظام الأولوية لصالح التحليل الجنيالوجي، الذي أصبح منذ ذلك الوقت يحتل المرتبة الأولى في سلم اهتماماته، من خلال التأكيد بأنه لا وجود لحقيقة أولى يمكن الوصول إليها من خلال تأويل الأفكار. وإذا كان السؤال الكانطي يتعلق بشروط المعرفة وحدود إمكانها فإنَّ السؤال الجنيالوجي عند نيتشه لا يتعلق بمعرفة ممكنة بل بإنكار كل معرفة أوّلية. والحق أنّ التساؤل ـ فيما يرى نيتشه ـ عن أصل الفلسفات وكيفية نشأتها أمر لا قيمة له على الاطلاق ولا ينبغي أن نهتم في الأشياء الاَّ بمراحلها المتقدمة وحدها، فالطريق المؤدي إلى كشف أصول الأشياء يؤدي دائما إلى البدائية والهمجية(أندلسي، 2006). وإذا كانت الجنيالوجيا النتشوية تفضل تصور البدايات التاريخية كشيء وضيع، طارئ ومعقد، فإن نظرة فوكو إلى التاريخ هي نظرة نيتشوية إلى أبعد الحدود. إن التاريخ الجينيالوجي ـ وهنا المفارقة ـ يرفض الأصل في صورته الميتافيزيقية؛ التي تحتفي بالثبات والكرامة وسيادة الذات الواعية والتراكم فالتاريخ بالمعنى الجينيالوجي لا يكون فعليا إلا بقدر ما يكون انفصاليا. وعلى هذا النحو لا تختلف الجينيالوجيا من حيث المبدأ والهدف عن الأركيولوجيا؛ فالمبدأ هو الانفصال، والهدف إبراز الحدث في وحدته وتفرده. لكن هذا لا يعنى أن الجينيالوجيا تماثل تماما الأركيولوجيا فثمة اختلاف بينهما. هذا الاختلاف جعله العديد من الدارسين والنقاد علامة على انتقال فوكو للمرحلة ما بعد البنيوية، وحسب ريتشرد هارلند Richard Harland تبدأ جينيالوجية فوكو من حيث تنتهي أركيولوجيته موسعة داخل المجالات الجديدة للخطاب الحملة ضد العلوم والنزعة الإنسانية (هارلند، 2003، ص223) .والاختلاف الموجود بينهما، هو أن الجينيالوجيا تركز على علاقات السلطة بدل المعرفة وعلى الممارسات بدل اللغة.

وإذ نتفق مع هارلند بأن الجينيالوجيا أصبحت العنوان البارز لخطاب فوكو في مرحلة تالية، لكننا نختلف معه في كون تحديد بداية محددة لها، فطالما اختلطت جينيالوجيا فوكو بأركيولوجيته فالسلطة أو التشكيلات غير الخطابية كاهتمام جينيالوجي ظهرت مع فوكو في باكورة أعماله(تاريخ الجنون)، يقول فوكو:« عندما أفكر فيها الآن (يعني السلطة) فإنّي أسأل نفسي عن ماذا تكلمت في "تاريخ الجنون" أو في "مولد العيادة" إن لم تكن السلطة

والحال أن وعيا كاملا لدي بكوني لم أستخدم عمليا هذه الكلمة وأن الميدان من التحاليل لم يكن في مستطاعي» (الكبسي، 2008، ص53). يكشف هذا القول/ الاعتراف عن الحضور القوي للسلطة في المتن الفوكوي، وفي الوقت نفسه عن صعوبات تلك المرحلة السابقة لأحداث ماي1968، التي لم تسمح لخطاب السلطة، ومن ثم التأويل الجينيالوجي إلاَّ أن يظهر على سبيل التقية والمواربة، والتلميح دون التصريح كما هو الأمر في تاريخ الجنون.

إنَّ المنهج الجينيالوجي يتجه بالأساس إلى تحليل العلاقات الخفية والملتبسة، بين نمو سلطان المعرفة وتكنولوجيا السلطة، ذلك أن الحداثة الغربية قد قامت على أساس العلاقة الوطيدة بين السلطة والمعرفة، قد تصل في أحيان كثيرة حد التماهي حيث يتلاشى الخط الفاصل بينهما. وعليه فالاعتقاد أن التخلي عن السلطة شرط من الشروط العلم والروح العلمية اعتقاد خاطئ، والأصح الافتراض بأنَّ السلطة تنتج المعرفة، وأن السلطة والمعرفة تقتضي إحداهما الأخرى؛ وأنّه لا توجد سلطة من دون تأسيس مناسب لحقل المعرفة، وأنّه لا توجد معرفة لا تفترض ولا تقيم بذات الوقت علاقات سلطة، بل الأكثر من ذلك أن السلطة ـ المعرفة والعمليات والصراعات التي تجتازها والتي تتكون منها هي التي تحدد الأشكال والمجالات الممكنة للمعرفة (فوكو، المراقبة والعقاب، ص65).وسيكشف فوكو من خلال تعرضه لتاريخ السجن ـ على سبيل المثال ـ وعن طريق النقد الجينيالوجي الأهداف الحقيقة المضمرة للسلطة، التي تشكل دائرة المسكوت عنه في تاريخ الأفكار.

يبدأ فوكو خطابه عن تاريخ العقاب كصور من صور تاريخ الفكر الغربي، برسم المراحل الكبرى لأشكاله أو ما يسميه تكنولوجيا العقاب، وتتمثل هذه المراحل في:

مرحلة التعذيب: ساد هذا النوع من العقاب العصر الكلاسيكي، أين كان التعذيب الذي يطال جسد المجرم على مرأى ومسمع الناس، في احتفال طقوسي « هدفه ليس فقط إعادة التوازن بقدر ما هو إظهار التفارق، إلى حده الأقصى، بين فرد من الرعية تجرأ على خرق القانون والعاهل الكلّي القوة، الذي يبرز قدرته» (فوكو، المراقبة والعقاب، ص 82). إنَّ التعذيب كما يقرأه فوكو إن هو إلا سياسة ترهيب، تَتخذُ من جسد المعذب مكانا لها لبسط نفوذها ووسيلة لإنتاج الحقيقة.

مرحلة العقاب: أصبح السجن في هذه المرحلة آلية جديدة من آليات السلطة لكنها آلية مراقبة للجسد لا آلية تعذيب له، كما في السابق، فمع حلول الثورة الفرنسية تم استبدال الخطر على العاهل بالخطر على المجتمع، وبالتبعية إنزاح حق العقاب من دلالة انتقام العاهل إلى الدفاع عن المجتمع، بوضع مخترق العقد الاجتماعي في سجن يسمح بمراقبته، كما يكون مناسبة لتقويمه واصلاح اعوجاجه (فوكو، المراقبة والعقاب، ص116).

مرحلة الانضباط: أصبح نظام المراقبة والضبط في هذه المرحلة أكثر اتساعا وامتدادا وسرية، تم ذلك بفضل تقنية الانضباط، وهي « نمط من أنماط السلطة، ونموذج من نماذج ممارستها يشمل مجملا كاملا من الأدوات والتقنيات والوسائل، ومستويات التطبيق والمرامي، إنها "فيزياء" أو "تشريح للسلطة"، إنه تكنولوجيا» (

فوكو، المراقبة والعقاب، ص221).يتولى أمر تنفيذها مؤسسات متخصصة، كالسجون والاصلاحيات، وقد تستخدمه المدارس والثكنات العسكرية والمستشفيات والجامعات. في كل هذه المؤسسات الموضوع المركزي للانضباط هو الجسد: جسد المجرم، جسد التلميذ، جسد الجندي وجسد المريض، وهكذا.

- **الخاتمة:**

يمكن القول على نحو ما تقدم، أنّ الهاجس الأساسي الذي حرك فوكو، هو محاولته الانعتاق من النظرة التقليدية للتاريخ ومن حمولاتها المعرفية وتوجهاتها المنهجية وغايتها الميتافيزيقية. وحيث يرفض فوكو أن يكون التاريخ الفكري تاريخا للأحداث الكبرى(الماكرو تاريخية) ذائعة الصيت أو مكرا للعقل كما اعتقد هيجل لرسم مسار الفكر العقلاني نحو المطلق، فإنه يقترح نقيضا لذلك تاريخا لما هو نادر وضئيل ومتلاشي ومتشظي ونادر (الأحداث الميكرو- تاريخية)، التي تشكل تاريخا للصمت والاكراه، حيث أركيولوجيا القطيعة وجينيالوجيا الحقيقة تحكمان مسار تاريخ هذا الفكر، والغاية من ذلك تحطيم أسطورة العقلانية الغربية الحديثة، وتفكيك مركزيتها، بالكشف عن وجهها السالب.

وبالنظر إلى التحولات الفكرية التي عرفها فوكو، فإن القراءة النقدية التي قدمها لتاريخ الأفكار لم تتسم باستقرار منهجي؛ فهو في المرحلة البنيوية اعتمد المنهج الأركيولوجي، قصد الكشف عن مواطن صمت الخطاب، وآثر في المرحلة ما بعد البنيوية المنهج الجينيالوجي للكشف عن علاقات السلطة ـ المعرفة. لكن هذا التقسيم لا يعني أنه بحضور أحد المنهجين يغيب الآخر ضرورة، فالمسألة ـ كما رأينا ـ ترتيب أولويات حسب مقتضى الحال.

ثُم إن أركيولوجيا فوكو كما المنهج الجينيالوجي عنده ليست مجرد سردا لتاريخ الأفكار وليست تدوينا للتاريخ على طريقة المؤرخين الميتافيزيقيين، فمتون هؤلاء ومدوناتهم التاريخية حول سير الملوك والأبطال أو حتى مسار العقل والروح، لا تقدم الوجه السالب للحضارة الغربية، ولا تتضمن التاريخ الذي يجب أن يكتب أو ما لا تاريخ له بعد.

وهكذا يكون فوكو عن طريق حفرياته وبمعية النقد الجينيالوجي قد نقل الكتابة التاريخية في مجال تاريخ الأفكار من منهج يعتمد على فهم الأحداث ضمن سلسلة غائية، وسيرورة كبرى تطرح مشاكل العلية والسببية والحرية، في مسار خطي متصل أملته الضرورة الميتافيزيقية، ويبحث عن انتشار الأفكار عبر مختلف النطاقات، وأهم التطورات التي تلحقها أثناء ارتحالها من مجال معرفي إلى الآخر، إلى منهج يؤمن بالقطيعة ويحتفي بالانفصال ويمقت الأصول، ويبحث عن المكبوت في تاريخ الفكر الغربي، محدثا بذلك تصدعا في تاريخ الفكر الغربي، كاشفا عن أوهام العقلانية الغربية، ومتجاوزا الرؤية الميتافيزيقية التي ارتهنت التاريخ، وجعلته أداة للتبرير وضع قائم، ومحررا تاريخ الأفكار من كمين الذات المتعالية مجردا إيَّاه من وحدته العضوية، متجها به صوب المسكوت عنه، القابع في الفجوات والبياضات.

المصادر والمراجع:

1. جون ليشته.(2009) خمسون مفكرا أساسيا معاصرا، من البنيوية الى ما بعد البنيوية، (ط1). ترجمة، فاتن البستاني. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت، لبنان.
2. جاك لوغوف. (2007). التاريخ الجديد (ط1). ترجمة، محمد الطاهر منصوري، مركز دراسات الوحة العربية، بيروت، لبنان.
3. ريتشرد هارلند. (2003). ما فوق البنيوية ـ فلسفة البنيوية وما بعدها (ط1) ترجمة، لحسن أحمامة.دار الحوار دمشق، سوريا.
4. عبد العزيز العيادي. (1994). ميشال فوكو ـ المعرفة والسلطة (ط1). بيروت، لبنان: مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
5. عبد الله عبد اللاوي. (2009). إبستمولوجيا التاريخ (ط1). إبن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر.
6. عبد الله عصام . (2009). الأسس الفلسفية للعولمة.(ط1). إصدارات المجلة العربية، الرياض، السعودية.
7. فرانكلين باومر. (1987). تاريخ الفكر الأوروبي الحديث ج1. (ط1). ترجمة. حمدي محمود أحمد. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر.
8. محمد أندلسي. (2006). نيتشه وسياسة الفلسفة (ط1). دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب.
9. محمد علي الكبسي. (2008). ميشيل فوكو. (ط 2). دار الفرقد، دمشق، سوريا.
10. مصطفى عادل. (2003). فهم الفهم ـ مدخل إلى الهرمنيوطيقا(نظرية التأويل من أفلاطون إلى جادامير) (ط1). دار النهضة العربية، بيروت، لبنان.
11. ميشال فوكو، (2006). هم الحقيقة (ط1). ترجة، مصطفى المسناوي. منشورات الاختلاف، الجزائر.
12. ميشال فوكو. (1987). حفريات المعرفة (ط 2). ترجمة، سالم يافوت. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء، المغرب.
13. ميشيل فوكو. (1990). الكلمات والأشياء (ط1). ترجمة، مطاع الصفدي. مركز الأنماء القومي، بيروت، لبنان.
14. ميشيل فوكو. (1990). المراقبة والعقاب ـ مولد السجن. ترجمة، على مقلد. مركز الأنماء القومي، بيروت، لبنان.
15. ميشيل فوكو. (2006). تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي (ط1). ترجمةن سعد بن كراد. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء، المغرب.
16. Arthur O. Lovejoy. (2001). The Great Chain of Being: A Study of the History of an Idea. U.S.A: Harvard University Press.
17. Michel Foucault (1972).Histoire de la folie à l'âge classique. Gallimard .Paris.
18. Michel Foucault(1966). Les Mots et les Choses. Gallimard .Paris.
19. Michel Foucault (1969).L'Archéologie du savoir .Gallimard .Paris.